من الترجمة إلى عودة النص

سؤال في ترجمة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إلى العربية

أمين الزاوي
باحث/ وهران

جاءت هواجس هذه الورقة مدفوعة بجملة من العناصر التالية:

أولا من خلال تجربتي الخاصة و الذاتية و ربما الوحيدة في المغرب العربي وهي ممارستي للكتابة الروائية باللغتين العربية والفرنسية إذ نشرت وفي الوقت نفسه مجموعة من النصوص بالعربية بين بيروت ودمشق والجزائر الروايات التالية: صهيل الجسد (1985) السماء الثامنة(1993) الرعشة(1999) ثم رائحة الأنثى(2000) كما نشرت بالفرنسية بباريس الروايات التالية :

- (sommeil du mimosa) suivi du (Sonates des loups)deux romans en un seul volume éditions Serpent à Plumes Paris 1997
- (La Soumission) (roman) les Editions du Serpent à Plumes, Paris 1997
- (La Razzia), (Roman) Les éditions Serpent à Plumes Paris 1999.
- "Haras de femmes » (roman) Les éditions Le Serpent à plumes, Paris, 2001.

ثانيا: تجربة بسيطة، تتميز بتمرين في الترجمة، ذلك أنني قمت بترجمة نص روائي لمحمد ديب من الفرنسية إلى العربية و أعني به نص (هابيل) الذي نشر بدار الجليل 1985.

ثالثا: العامل الأخير و هو النقاش الجاري حاليا حول الهوية واللغات وكذا طبيعة الإبداع في جزائر متعددة و ومتفتحة لها خصوصياتها في التاريخ اللساني وفي المثاقفة وفي الصراع وفي طبيعة تشكل الحقول الثقافية والأدبية. كذا في الطبيعة الخاصة لتشكل الأنتليجانسيا الجزائرية عبر التاريخ القديم و الحديث.

انطلاقا من ذلك نحاول من خلال هذه الورقة طرح مجموعة أسئلة تدور حول ماهية النص الأدبي الجزائري باللغة الفرنسية في ما يتصل بعلاقاته باللغة المكتوب فيها وبها

أي اللغة الفرنسية الجزائرية وعلاقته باللغة العربية العالمة أو الشعبية أو الأمازيغية وهو ما نطلق عليه: اللغة الغائبة أو المستترة:

عطفا على ذلك، ألا يحق لنا، على المستوى النظري و التجريدي، أن نطرح السؤال التالي و الذي نعتبره جوهريا في كل مساءلة لظاهرة الكتابة بلغة غير لغة الأم:

أليس الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ترجمة لنص غائب؟

ألا يعتبر النص المكتوب بالفرنسية نصا يخفي خلفه نصا آخر؟

أليس النص المكتوب بالفرنسية قناعا لنص مستور أو مستتر، هو ذلك النص الذي يمكن أن نسميه: النص الأتوكتوني: (Le texte autochtone)، نص يكتفي بموقع له خارج الخشبة أو خلف الستارة؟

نعني بالنص الأوتوكتوني هو النص المتموقع صوريا داخل حقل أدبي ومعرفي آخر غير ذلك الذي يتموجد فيه وله (تحقيق الوجود الأدبي) النص بالفرنسية (في حالة الأدب الجزائري).

من هنا فالنصان، نص القناع (النص الأدبي المكتوب بالفرنسية) والنص الخارج-الخشبة (النص- الواقع، النص الغائب و المرجعي) ينتميان الى سلسلتين ثقافيتين و حضاريتين و مخياليتين مختلفتين:

فالنص القناع (النص ذو التعبير الفرنسي) أو بالأحرى: (Le texte de graphie française) يتموقع أو يحاول أن يتمعرف (s'identifier) من حيث هو أدب ولغة داخل متن سلسلة الثقافة الغربية. ويتم هذا التموقع من خلال مجموعة من التناقضات، تلك التناقضات التي تمثل جزءا من عناصر تعريفيته من حيث أنه نص-القناع.

أما النص الغائب (النص الخارج-خشبة) أو ما يمكن أن أسميه النص الملقم (Texte souffleur) فإنه ينتمي الى سلسلة ثقافية أخرى هي الثقافة المحلية: المؤسسة بدورها في ما يسمى بالثقافة الشفوية أو العالمة.

من هنا:

ألا يحق لنا أن نتساءل، بل أن نذهب بعيدا في السؤال المعرفي التالي:

أليس الكاتب باللغة الفرنسية بمترجم لذاته؟ مترجم نفسه؟

أليس هو الوجه و القفا؟

إن حالة الروائي كاتب ياسين مثلا في تجربة الذهاب و الإياب بين لغة المسرح (لغة تنتمي إلى النص الغائب، نص القناع) و لغة النص الحاضر الرسمي

(نصوصه المسرحية والروائية المكتوبة بالفرنسية الجزائرية)، هذه الحالة تؤكد الصورة المثلى والطبيعية للكاتب الجزائري باللغة الفرنسية.

كما أنها تحدد موقع الحد، فهو في برزخ، أو كمن يمشي على حد الشفرة، يتجاذبه نصان:نص يعوم في تقاليد السلسلة الأدبية الغربية و نص ملتحم بالواقع السوسيولوجي و الأنثروبولوجي و السياسي المحلي، متموقع في الذاكرة بكل ما لها من انتماءات ظاهرة أو مستترة أو نائمة لا تظهر إلا في لحظة التجلي الإبداعي. باعتبار أن الأدب ينتمي إلى ما يسمى بالرأسمال الرمزي أو الخيرات الرموزية.

1- إن المرجعيات النصية للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية مرجعيات تنتمي إلى حقل ثقافي و أدبي غير الحقل الأدبي و الثقافي المرتبط مباشرة باللغة الفرنسية.

1-إن هذه المرجعيات المؤسسة و المكتوبة في النص بالفرنسية أو على الأصح المنقولة إليه، هي مرجعيات مرتبطة في أغلب الأحيان بالذاكرة وبالطفولة و بالأمومة.

2-إن الحقل الثقافي و الاجتماعي الأمومي الذي ينتمي إليه الكتاب الجزائريون باللغة الفرنسية هو حقل شفوي و رموزي. ففي هذا الحقل تلعب الأم دورا مركزيا. لذلك فالأديب يمارس كتابة لسان أمه أو عالم طفولته وفي الحالتين فإنه يقوم بعملية ترجمة من نوع خاص لهذين العالمين اللذين يعدان مركز ثقل في كل إبداع.

إنها ترجمة من نوع خاص تحمل قلق النقل و قلق الانتقال: الرحلة من المنطوق الذي ينتمي إلى سلسلة ثقافية و معرفية ولغوية لها منطقها التاريخي والوجودي الخاص بها إلى حالة المكتوب الذي ينتمي إلى سلسلة معرفية و رموزية أخرى لها منطقها الخاص بها.

إنها مأساة وجودية معرفية: الانزلاق من حارة الأثر الشفوي أو المكتوب في سلسلة ثقافية معينة إلى عالم الأثر المرسوم المنتمي إلى سلسلة ثقافية أخرى.

1- يقوم الأديب بنقل نمط للتصورات أي بنقل شكل معين للصور والاحتلامات والأحلام القادمة من متن ثقافي آخر يختلف عن شكل الصور والتصوير التي تنتمي إليها اللغة الفرنسية التي فيها يتأسس النص كإنتاج أدبي نهائي.

2-إن الأديب الجزائري الذي يكتب بالفرنسية، أحب أم كره، يفكر بلغته الأصلية لغة الأم والطفولة و الميثولوجيا و الدين ويكتب بلغة ثانية لها انتماء آخر ونمطق آخر، أي لغة الإبداع.

3- انطلاقا من هذه الحالة الإبداعية المحملة بهذا القلق السيزيفي يمارس الأديب الذي يكتب بالفرنسية الخيانة الجميلة، المسموح بها، و الاختراق المتواصل، فهو واقع بين سحر الغواية و مغامرة الخيانة.

4-تتمثل هذه الخيانة الحلال(la Trahison permise) في كون أدبنا المكتوب باللغة الفرنسية بكل ما يحمله من عنف نصي يمارس تكسيرا مستمرا داخل بنية لغة الابداع المستقبلة.

5-إنه ومن خلال هذه الخيانة المسموح بها و عنف التكسير اللغوي هذا، التركيب و إعادة التركيب الممارس على و داخل اللغة الفرنسية، يمارس النص،في الوقت نفسه، لحظة إثراء لهذه اللغة الابداعية المهددة بالشيخوخة وذلك بتشريع نوافذها على حقول خيالية و موسيقية قادمة من الثقافة الأمومية للكاتب .

6- إن علاقة الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية عامة و الأدب الجزائري على وجه الخصوص، باللغة الفرنسية، لغة الإبداع، لغة الأثر والغرافيك:حالات: كاتب ياسين، محمد ديب، مولود فرعون، مولود معمري، آسيا جبار، رشيد بوجدرة، رشيد ميموني(الجزائر) عبد اللطيف اللعبي، مصطفى النيسابوري، فؤاد العروي(المغرب) عبد الوهاب مؤدب، هالة باجي، فتحي بن سلامة (تونس)... وكذا علاقة الأدب الأنكلوفوني العربي و الأفريقي باللغة الإنجليزية حالات: حالة الكاتب النيجيري ويلي صوبينكا، أشيبي، نور الدين فرح، سلمان رشدي حليم بركات، جبرا إبراهيم جبرا، جبران خليل جبران,, هي علاقة مؤسسة أيضا على العنف الفني واللغوي و رغبة التكسير و الخروج عن الطاعة الأكاديمية. وفي هذه الحالة الثقافية من العنف والعنيفة التي ربما يؤجج نارها الموقف المبدئي من المستعمر(الصورة النائمة في الذاكرة) كصورة للطغيان والتهميش ورفض محيطه اللغوي والثقافي تثرى اللغة الفرنسية و اللغة الإنجليزية.

وبقدرما تحمله هذه التكسيرات من اختراقات و تشويهات في اللغة الأصلية إلا أنها تساعد على مصل اللغة، لغة الابداع هذه، والحفاظ عليها و تطويرها وانعاشها، لذلك وجدت اللغة الأمريكية-الإنجليزية، اللغة الإنجليزية- الإفريقية، اللغة الفرنسية- خلف البحار: (Langue française d'outre-mer) و اللغة الفرنسية الجزائرية(Le français algérien) و اللغة الفرنسية المحيطية، لغة الأحياء القصديرية: (La langue française banlieusarde) مع انتاج أدبي متطور عاميا أذكر على سبيل المثال الكاتب الجزائري عزوز بقاق Azouz Begag صاحب رواية " (le gône de chaâba))

7- إن ارتباطات النص الجزائري المكتوب بالفرنسية (النص القناع) بمتون ثقافية لها ترسانة مخيالية و أسطورية خاصة بها يمليها النص الغائب الذي يحيل على

جذور في ثقافة الأنا: الأم و الطفل، حالة الارتباط والإحالة تمثل عقبة وعقدة في القراءة، لدى القارئ الفرنسي.

إذ أن شعور المعاناة والصعوبات المشكلة لدى القارئ الفرنسي و هو أمام نص بالفرنسية سببه الأساس هو الخلفية الذاكراتية و الاجتماعية و الرأسمال الرمزي الذي يستند إليه الكاتب في تأسيس نصه. انطلاقا من ذلك فالنص الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى التلقي أي القراءة، يضع القارئ الفرنسي أمام وضعية قراءة نص مترجم.

و قد لمست ذلك من خلال مجموعة كبيرة من الرسائل التي وصلتني من القراء حول بعض رواياتي التي كتبتها باللغة الفرنسية والتي أشرت إليها أعلاه والتي تعتمد التراث المغاربي والعربي و الاسلامي مجالا للكتابة.

لقد فازت رواية La Soumission بجائزة القارئ الثانوي بفرنسا Le prix des lycéens وقد سألت مجموعة من الطلبة عن سبب تكريمهم و تفضيلهم لهذه الرواية فكان الجواب: إنه نص فيه عنف لغوي غريب أخرجنا من النص العادي اللغة الفرنسية العادية و التي هي الآن في حالة من الاحتضار.

المشارقة و ترجمة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

في وصف ونقد الترجمات المشرقية:

1-أولا على المستوى المنهجي: يحتاج مترجمو الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إلى العربية إلى دليل أو قاموس للمترجمات, ففي غياب دليل أو قاموس فكل عمل ترجمي هو عملية مقطوعة الجذور وبالتالي تكون فاقدة لبعدها النقدي ومجردة من الإضافة والتعميق.

بذلك تظل هذه الترجمة ارتجالية مزاجية مقطوعة عن الحقل الأدبي و الثقافي في الجزائر و في العالم العربي و في العالم الفرنكفوني.

الثقافة و المخيال الأمازيغيان مجهولان لدى المترجم العربي المشرقي وكذا الروح الجزائرية المبثوثة في اللغة الشعبية التي يستند إليها الكاتب من خلال ارتباطه بمجتمعه. (مقارنة بين ترجمة المشارقة لمولود فرعون : "ابن الفقير" ترجمة جورج سالم وزارة الثقافة السورية 1962 و ترجمة المرحوم حنفي بن عيسى ل " الدروب الوعرة" سنيد الجزائر1976 الطبعة الثانية و كذا بين ترجمة ملكة ابيض عيسى لرواية نجمة لكاتب ياسين و ترجمة محمد قوبعة لنفس الرواية)

إبراهيم كيلاني واحد من الذين كتبوا عن الأدب الجزائري بالفرنسية يعتبر إدريس شرايبي كاتبا جزائريا.

2-لم يشكك أي مترجم أو دارس مشرقي في وطنية هذا الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. بل إن الأفكار الوطنية التي تضمنتها هذه النصوص هي التي دفعت إلى مثل هذه الترجمة والعناية (على سبيل المثال: أشير هنا إلى الدراسة الوصفية التي قدمها طه حسين عن الربوة المنسية لمولود معمري).

لقد كانت الموجة الأولى من المترجمين العرب من السوريين و اللبنانيين مدفوعة بعامل دعائي سياسي وهو مساندة الثورة الجزائرية، أذكر هنا ترجمات كل من: سامي الدروبي(ثلاثية محمد ديب) ملكة أبيض عيسى (كاتب ياسين و مالك حداد) سلسلة الأدب الجزائري التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة السورية والتي صدر منها أزيد من عشرين عنوانا.

1- تميزت هذه الترجمات:بحس حماسي قائم على التركيز على إبراز القضية الجزائرية قبل الحديث عن الأدب الجزائري. أي الاحتفال بالثورة الجزائرية أكثر منه الاحتفال بالنص الأدبي.

2- بذلك يمكن طرح السؤال التالي: هل الترجمة كانت للثورة الجزائرية أم للأدب الجزائري؟

3- إن دراسة سوسيولوجية في العناصر الجمالية المكونة لأغلفة الروايات المترجمة من الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والمنشورة في الشرق العربي، تحيل مباشرة الى مكونات الذهنية المشرقية التي كانت ترى في الأدب الجزائري رسالة عن الحرب وفقط. و هي رؤية تدل على الخلفية السياسية القائمة على البعد الاختصاري للترجمة و دورها الحضاري.

4- إن المقدمات و التعليقات و الهوامش الاستهلالية لهذه الترجمات وحتى الدراسات العربية بشكل عام كلها تركز على نضالية الأدب أي جانب الرسالة السياسية و الأخلاق في حين يلغى الجانب الجمالي من كل هذه النقاشات و المقاربات.

إن هذا الموقف القومي جعلنا نتلمس حالة من الأبوية الأدبية والحس الأخلاقي الذي يؤطر هذه الترجمات. وهو الأمر الذي جعل المترجم يتصرف بكل حرية في النص لتصل في بعض الترجمات إلى إعادة إبداع Traduction récréative. حالة سامي الدروبي في ترجمته لثلاثية محمد ديب:

La grande maison, le métier à tisser et l'incendie.

5- إن ما دفع المشارقة إلى الاعتناء بترجمة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية هو ضعف الأدب الجزائري ذي اللسان العربي إن في أطروحاته السياسية

التي ظلت حبيسة الفكر الإصلاحي التلفيقوي أو أطروحاته الجمالية التي لم تخرج عن جماليات عصر النهضة (البارودي و الرصافي و شوقي.)

إن الأدب الجزائري بالعربية والمرتبط بالثورة الجزائرية طغى عليه الإنتاج الشعري الكلاسيكي الذي لم يتحرر من الفكر الحماسي و بنية القصيدة النهضوية المصرية دون أية خصوصية تربط هذا الأدب بالجزائر.

مثال:

إن ما فعله الناقد التونسي محمد فريد غازي حين ضم أهم ثلاثة كتاب جزائريين بالعربية هم: المرحوم القاص محمد العريبي و المرحوم الروائي عبد الحميد بن هدوقة و الطاهر وطار إلى متن الأدب التونسي، له دلالاته السياسية والفكرية. إن مثل هذا يدل على أن هذه النصوص لم تكن لها أية خصوصية جزائرية، لا شكلا ومضمونا.

أغلب ما نشر من الأدب الجزائري بالعربية: نصوص خمار، أبو القاسم سعد الله في الستينات و الخمسينات و امتد هذا الإحساس الاشفاقي حتى سنوات السبعينات مع نشر نصوص رديئة بحجة أن الجزائر المفرنسة تحتاج الى تشجيع: نشر رواية دماء ودموع لمرتاض في سلسلة روايات الهلال وغيرها كثير من النصوص التي كانت تنشر في مجلة الآداب أو المجلات السورية أو المصرية.

المرحلة الوطنية:

بمجرد بداية تأسيس الدولة الوطنية و خلق تراكمات في أجهزتها وخفوت حرارة و حماس الاستقلال و ظهور مشاكل الدولة الوطنية على الساحة الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية والثقافية واللغوية، صمتت الترجمة الاحتفالية و نسي العالم العربي الأدب المكتوب باللغة الفرنسية.

مرة أخرى عاد المجتمع الأدبي العربي للعناية بالأدب الجزائري المكتوب بالعربية وهذه المرة ستظهر جليا النزعة الأبوية الشرقية تجاه ما يكتب بالعربية في الجزائر و تبدأ مجموعات سياسية ثقافية تحت شعار تشجيع الأدب الجزائري بالعربية على تكريس أدب جزائري ردئ، باسم مواجهة مخلفات الاستعمار و باسم العروبة وباسم التعريب و باستعمال مفاهيم خارجة عن الأدبية La littéralité و سوف نلحظ ظهور أسماء لا تستعمل إلا للتوظيف السياسي.

وسيطول هذا الصمت، صمت الترجمة، حتى بداية الثمانينات لتعود الترجمة، بعد أن تأكدت من أن الأسماء التي تكتب بالعربية لا تملك تميزا أدبيا كبيرا (الطاهر

وطار، عبد الحميد بن هدوقة، عبد الملك مرتاض...) تعود الترجمة هذه المرة مدفوعة بعوامل أهمها الشهرة الأدبية و الاعلامية التي حققتها بعض الأسماء الجزائرية على المستوى العالمي، و ستكون العودة انطلاقا من ترجمة روايات رشيد بوجدرة، أي الجيل الثاني من الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية، وستلقى أعماله المترجمة رواجا كبيرا في الشرق، عند القارئ العربي: ستترجم له: الحلزون العنيد (ترجمة هشام القروي) و"الألف وعام من الحنين" ترجمة مرزاق بقطاش ثم ترجمة الجيلالي خلاص " ضربة شمس" ثم " التطليق" (ترجمة صالح القرمادي) و بعد رشيد بوجدرة سيهتم المترجمون بأعمال "رشيد ميموني" ثم أخيرا " الطاهر جاووت".

وستتأسس في تونس سلسلة خاصة بترجمة هذا الأدب تسمى " سلسلة عودة النص" التي ستهتم بالأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية و سيكون للأدب الجزائري نصيب كبير في هذا المشروع الترجمي: فرعون، كاتب ياسين، آسيا جبار، رشيد بوجدرة، رشيد ميموني....

ما يلاحظ على هذه الترجمات خاصة " التطليق" و " الألف وعام من الحنين" أنها ترجمات لم تحترم النص الأصلي كاملا. و إذا كنت أريد أن أنوه بترجمة مرزاق بقطاش من حيث شمولية النص إلا أن المترجم حذف بعض الفقرات التي اعتقد أنها قد تستفز القارئ العربي غير المتعود على قراءات النصوص الروائية الجريئة.

ختاما ألا يحق لنا أن نطرح السؤال التالي بعد هذا الحديث عن سؤال الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وعلاقته بالترجمة: ألا يشهد الأدب الجزائري ميلاد تجربة أدبية فريدة لم يعرفها الأدب في الدول العربية الأخرى؟ انه ميلاد جيل أدبي يكتب باللغتين العربية و الفرنسية.

أليس الجيل الأدبي الجزائري الجديد ومن خلال هذه الكتابة باللغتين يعلن عن ميلاد نموذج أدبي جديد قادر على تجاوز النموذج المصري الذي لا يزال مهيمنا على الساحة الأدبية في العالم العربي و الذي بدأ يعلن عن شيخوخته و احتضاره؟.

أوليس هذا الجيل و بهذه الممارسة و بعد أربعين سنة من الاستقلال يحقق للجزائر تفردها وخصوصيتها الثقافية و اللغوية و الحضارية المتعددة و الغنية؟.

أليس في الأخير و من خلال هذه الممارسة الثنائية في الأدب وفي لغات الابداع إشارة إلى مستقبل يتميز فيه الحقل الأدبي و الثقافي بالتسامح و التحاور الثقافي و اللغوي في بلادنا ؟